

إصلاح أم تحديث ؟ مصر فى عهد محمد على

ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بمناسبة مرور 150 عاماً على رحيل محمد على باشا الكبير

9 - 11 مارس 1999

تحرير: رءوف عباس

تقديم المحرر

درجت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ إنشائها عام 1945م على تخصيص ندوتها السنوية لمعالجة إحدى القضايا الهامة من تاريخنا القومى، حيث يلتقى المشتغلون بالبحث التاريخى على إختلاف أجيالهم، يتبادلون الخبرات، كما يتبادلون الرأى، وكانت ندوات الجمعية تجتذب أحياناً المشاركين من خارج مصر والدارسين والمهتمين بالبحث التاريخى فى مصر.

ولا زال هؤلاء وأولئك يذكرن ما صدر عن الجمعية من دراسات رصينة. نشرت منذ عام 1949م، فى إطار احتفال مصر بالذكرى المئوية لرحيل محمد على باشا الكبير، بإعتباره رأس الأسرة الحاكمة آنذاك. وبإعتباره مؤسس مصر الحديثة وراعى نهضتها. وكان نشر تلك الدراسات المرجعية الهامة بدعم مادى سخى تلقته الجمعية عندئذ من القصر الملكى. لذلك ركزت تلك الدراسات على الإنجازات والإيجابيات، وحجبت الأضواء عن غيرها من قسّمات وملاحق تلك الحقبة الخصبة من تاريخ مصر. ورغم ذلك، ظلت تلك الدراسات تسد فراغاً كبيراً فى المكتبة التاريخية لعدة عقود من السنين.

وإذا كانت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تعود اليوم لتملك زمام المبادرة بإحياء الذكرى الخمسين بعد المائة لرحيل محمد على باشا الكبير، فإن ذلك يتم فى سياق آخر، سياق إحتفال الجمعية بتاريخ هذا الوطن العزيز، والإهتمام بإخضاع الحقب الهامة بين ذلك التاريخ للفحص المجهرى الدقيق سعياً لإعادة تقويم تلك الحقب بقدر أكبر من الموضوعية، وإلقاء المزيد من الضوء على تجارب خالدة من تاريخ هذا الوطن الذى كان التاريخ دائماً صناعته التى كان له فيها قصب السبق. وفى دراستنا لتجربة مصر فى عهد محمد على هذه المرة نضع الإيجابيات على أبعاد تلك التجربة الخالدة، ونسبر غورها، لنتعلم منها ما قد يساعدنا على تحديد معالم طريقنا إلى مستقبل نأمل أن تحتل فيه مصر مكانها اللائق بها بين الأمم.

فقد حول محمد على مصر من الهامش إلى القلب، وأثبت عملياً أن مصر قادرة، بمواردها وأبنائها، على امتلاك مفاتيح القوة بمفهومها العصرى (عندئذ)، فاستطاع جيش مصر الحديث بجنود الفلاحين أن يعيد لمصر فى سنوات قلائل دورها الإقليمي المفقود، كما حققت التنمية الإقتصادية تراكمات ملحوظة استثمر فى تمويل المشروع الطموح بمختلف أبعاده دون الاستدانة من الخارج، بل حقق الإقتصاد المصرى فى نهاية عصر محمد على فائزاً استثمر بعضه عباس الأول فى بناء الخط الحديدى. وأعطى الإنجاز فى حقل التعليم والثقافة لمصر دورها الريادى المتميز فى العالم العربى.

غاب العدل الإجتماعى، وأثقلت تكاليف التجربة كواهل الجماهير الكادحة، أجل، ولكن رصيد مصر من حصاد التجربة كان له أثره على تطورها الحديث، فلم تعد مصر ما بعد محمد على هى ذاتها مصر التى كانت قبله.

ترى.. هل كان محمد على الكبير حقاً صاحب اليد الطولى فيما تحقق، أم أن مصر كانت قبله تمر بمرحلة مخاض تبشر بولادة مرحلة جديدة من تاريخها، فوجدت من يهيئ لها السبيل لتضع وليدها الجديد هل الفرد أو البطل يصنع تاريخ الأمة أم أن جماهيرها هى صانعة التاريخ ؟

أسئلة حسم علم التاريخ الإجابة عليها، ولكنها لازالت عالقة في أذهان الكثيرين، وكان دور هذه الندوة أن تضع النقاط على الحروف.

وهدفت هذه الندوة إلى إلقاء الضوء على التغيرات التي شهدتها مصر في نصف القرن الذي يمثل عصر محمد علي، للوقوف على الجذور التي أنبتت تلك التغيرات. وتجديد دورها في استمرارها أو تقاعسها، وبيان ما استطاعت مصر أن تتخذ منه حجر الزاوية في إعادة هيكلة إقتصادها ومؤسساتها المختلفة في الفترة اللاحقة على عصر محمد علي، أو - بعبارة أخرى - تقدير ما خرجت به مصر من محصلة تلك التجربة الخالدة.

ورغم قصور إمكانات الجمعية عن تقديم واجب الضيافة للباحثين من خارج مصر، كان الإقبال على المشاركة في هذه الندوة كبيراً، فقد طلب ثلاثون باحثاً المشاركة فيها جاء معظمهم من مصر، وجاء من الأخوة العرب باحث من السودان وآخر من المغرب، وجاءنا من خارج العالم العربي ثلاثة باحثين من روسيا وأربعة من الولايات المتحدة الأمريكية وباحث من هولندا، قدموا أوراقاً تعالج زوايا هامة من تاريخ هذا العصر بغرض إعادة تقييم حصاده.

ويسعدني أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الإمتنان للزملاء الذين لبوا الدعوة للمشاركة في أعمال الندوة، والزملاء الذين تجشموا عناء السفر من خارج مصر لحضور الندوة، وإلى مكتبة القاهرة الكبرى التي أكرمتنا باستضافة الندوة، وإلى صندوق التنمية الثقافية بوزارة الثقافة الذي قدم لنا بعض الدعم، وإلى من تبرعوا بالمال والجهد لجعل الندوة أمراً واقعاً، وإلى رجال الإعلام والسادة الحضور للإهتمام بالمتابعة. أما الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة فصاحب الفضل الذي لا ينكر في إتاحة هذه الأعمال للقراء، فإلى سيادته والمجلس الأعلى للثقافة نتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير.

والله والوطن العزيز من وراء القصد

أ.د. رءوف عباس

مقرر الندوة